ما تبقى من ليلى

ديوان العرب للنشر والتوزيع

اســـــم الكتاب: ما تبقى من ليلى
اســـم المؤلف: وائل البابلي
التصنيـــــــف: رواية
الحجـــــــــم: 14 - 20
عدد الصفحات: 72
سنة الإصـــدار: 2025
رقـــم الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 13558 / 2025
الترقيم الدولي: 5 – 193 – 971 – 977 - 978

تدقيـــق لغوي: فريق ديوان العرب
تصميم غـــلاف: هبة عماد
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب
للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com
واتساب: 01030502390

ما تبقى من ليلى

رواية

وائل البابلي

مقتبس من قصة حقيقية""

الظلام لم يكن مجرد غياباً للضوء
كان كيانا، يعيش ويتنفس...

في تلك الليلة، كان الظلام أشبه بمحيط غارق في السكون، لا يعكره سوى صوت الريح وهي تعوي بين الأشجار كأنها تُحذر من كارثة وشيكة...
لم يكن هناك شيء عادي في ذلك الليل حتى الهواء بدا مشبعًا بشيء لم أستطع تفسيره، مزيج من الخوف والغدر.
في الداخل، كنت أجلس على الأرض، أراقب أمي وهي تحرك يدها فوق النار، تقلب خبزًا بسيطًا سيصبح عشاءنا الوحيد فمنذ بداية الحرب لم نأكل غيره، كانت الحجرة ضيقة، والجدران محطمة، لكنها كانت مأوى جيد، فهذا آخر ما تبقى لنا.
ستمر هذه الأيام، قالت أمي بصوتها الدافئ، الذي كان أشبه بوسادة صغيرة ألقي رأسي عليها كلما اشتدت العاصفة في الخارج. ابتسمت. لكنني شعرت بشيء خلف كلماتها..
كان هناك خوف لم تخفه ابتسامتها مطلقاً..
أبي كان يجلس بالقرب من الباب..
بندقيته بين يديه..
كان دائمًا هناك عينه على الأفق كأنها تنتظر شيئا..
فعندما كنت صغيرة كنت أعتقد أنه يحرسنا من المفترسات واللصوص..

لكن الآن..

وأنا أكبر قليلا أدركت أن ما يخشاه أكبر من أي ذئب جائع أو حتي لص ضعيف..

-"نامي،"..

قال لي أبي أخيرًا:

- "غدًا سنرحل."

لكنني لم أستطع النوم، كنت أسمع أصواتا بعيدة، مثل وقع أقدام ثقيلة تقترب شيئًا فشيئًا. ومفرقعات وصراخ طفيف..

في البداية ظننت أنها مجرد تخيلات، لكن الأصوات أصبحت قريبة جدا.

-"هم هنا" قال أبي،

ونهض مسرعاً، يحمل بندقيته،

مستعداً..

أمي سقطت قطعة الخبز من يدها، وأمسكت بي بقوة كأنها تخشى أن أسقط من بين أصابعها.

(ثم حدث كل شيء دفعة واحدة).

انفجر الباب وكأن عاصفة دخلت البيت..

كانوا مليشيا الجنجويد، هم أشبه بجوقة من أشباح الخراب، يجتمع في ملامحهم ما بين النتانة والوحشية، كأنما سُحبت أرواحهم من أقبية الظلام وصُبّت في أجساد متهالكة، لا حياة فيها إلا غريزة الدم والنهب. ثيابهم

العسكرية الرثة بدت وكأنها خرجت من مستنقعٍ قذر، مُرقّعة بعشوائية تُظهر أكثر مما تخفي، بينما تساقطت منها شظايا الزمن كأنها نُسجت من خيوط الفقر والعار.

وجوههم خالية من كل معالم الإنسانية، متجعدة بالشر، تتراكم فوقها طبقات من أوساخ المعارك، كأنما لم تغسلها مياه النقاء قط. أعينهم جاحظة كالذئاب الجائعة، تلمع بالخيانة والدموية، وأسنانهم صفراء مشوهة تبرز خلف شفاه متشققة تمضغ التمائم والخرافات وكأنها أدويتهم الوحيدة للجبن الذي يسكنهم.

خطواتهم تحمل رائحة الموت، تُعلن عن قدومهم قبل أن يراهم أحد. صوت حركتهم كصرير أبواب الصدأ، يُشيع الرهبة في الأحياء التي يجتاحونها. يجوبون الأزقة والطرق كقطّاع طرقٍ من زمنٍ سحيق، لا يعرفون قانوناً سوى النهب، ولا يمارسون سوى صناعة الخراب.

تمائمهم المعلقة في رقابهم وأذرعهم، تعكس عقولاً غارقة في الوهم والخرافة، كأنما يستمدون منها قوةً زائفة تضفي على قبحهم الخارجي ظلاماً داخلياً أعمق. هم شرذمة من الموتى الأحياء، رجالٌ بلا أرواح، يُطاردون أوهامهم بأيدٍ ملطخة بالدماء، وصراخ الضحايا يلاحقهم كلعنةٍ أبدية.

أبي حاول أن يرفع بندقيته، لكنهم كانوا أسرع. لم أسمع سوى صوت الطلقات صدى ملأ الحجرة.

صرخت أمي، لكنها لم تصل حتى نهاية الصرخة. أحدهم أمسكها من شعرها، وألقى بها على الأرض بجواري. شعرت بيدها تمسك بي بشدة، كأنها تحاول أن تحميني، لكنها كانت ضعيفة جدا.

كل شيء بعد ذلك أصبح مشوشا كان هناك دم الكثير من الدم. وكنت أنا هناك على الأرض، محاطة بأشلاء عائلتي. أردت أن أصرخ، أن أفعل أي شيء، لكن يدي كانت مربوطة خلف ظهري، وفمي مكمم. كنت أراقب فقط، بلا حول ولا قوة.

عندما انتهوا، تركوني كما أنا فتاة محطمة، مقيدة على الأرض، وحيدة بين جثث من كانوا يوما عالمي. أغمضت عيني، أحاول أن أهرب من كل شيء، لكن الصور بقيت محفورة في رأسي.

وهناك، في ذلك الظلام، في تلك اللحظة التي مات فيها كل شيء، ولد شيء آخر داخلي شيء لم أفهمه بعد، لكنه كان هناك صوت جديد بدأ يهمس في أذني: "لن تكوني ضعيفة بعد الآن."

****

شياطين في الأقنعة

السماء ممتدة فوقي، داكنة، بلا نجوم، وكأنها تشهد بصمت ما يحدث. كل شيء كان يشبه مشهدًا عبثيًا خرج من كابوس لن ينتهي. شعرتُ بظهري يلامس الأرض الباردة، تلك الأرض التي كنتُ أراها ملاذًا يومًا ما، لكنها الآن صارت شاهدًا على انكساري.

وقفوا حولي، كأنهم يقتسمون صيدًا، عيونهم تمتلئ بذلك البريق الوحشي الذي لا يمكن أن ينتمي إلى بشر. كانت ضحكاتهم قبيحة، تنبعث منها رائحة السخرية والفساد، وكأن كل واحدة منها تنزع مني شيئًا جديدًا. كنتُ أصرخ في داخلي، لكن صوتي لم يخرج. كأن الحبال الصوتية داخل حلقي قررت أن تخونني هي الأخرى.

نظرتُ إلى أبي. هناك، مرميًا على جانبه، مشلولًا بصراخ داخلي يشبه صراخي. عيناه، تلك العينان اللتان كانتا يومًا رمزًا للأمان، كانتا الآن ملطختين بالعجز. لم أكن أميز هل كانت دموعًا أم دماء على وجنتيه، لكنني رأيت انهياره في تلك اللحظة. لم يكن بحاجة لأن يتحدث. صمته كان أكثر قسوة من أي كلمات يمكن أن يقولها.

"لا تنظري."

قلتها لنفسي.
لكن عينيّ عصتني. رأيته يصرخ، يضرب الأرض بكل ما تبقى من قوته، يحاول أن يزحف نحوي، لكن قيوده كانت أقوى منه. كانوا ينظرون إليه وهم يضحكون، كأن عجزه كان جزءًا من المسرحية التي أرادوا لها أن تكون بلا نهاية.

شعرتُ بالوقت يتجمد. كانت اللحظة طويلة بشكل مستحيل. لم أكن أعرف إن كنت ما زلت أتنفس. كان الألم في جسدي حقيقيًا، لكنه لم يكن شيئًا أمام الألم الذي اعتصر روحي.
كل شيء ينهار داخلي، مثل جدارٍ هُدم بضربة واحدة.

اقترب أحدهم، وجهه متسخ، عيونه لا تحمل شيئًا سوى الشهوة القبيحة. لم يكن هناك إنسانٌ في ملامحه. لم يكن هناك روح. أمسك بذراعي كأنني دمية. حاولت أن أقاوم، لكنني شعرتُ بجسدي يخونني. فقد كان ضعيفًا، مرهقًا، بلا حول ولا قوة.

"ابتسمي."
قالها أحدهم وهو يقف فوقي. صوته كان كالسُمّ، حروفه تقطر سخرية، وكأنهم لا يكتفون بالجريمة ذاتها، بل يريدون أن يجعلوها مشهدًا يدوم إلى الأبد.

الأرض تحت ظهري كانت تمتص دموعي، لكنها لم تكن باردة بما يكفي لتطفئ النيران في داخلي. كنت أشعر بالحرارة، بحرارة الغضب، بالعار، وبذلك الحقد الذي بدأ يتسلل إلى داخلي لأول مرة في حياتي. لم أعد أرى العالم بنفس الطريقة. كنت أعلم أن شيئًا ما بداخلي قد انكسر، وانكسر إلى الأبد.

كانوا يتحركون كالأشباح، بلا صوت حقيقي، فقط تلك الهمسات والضحكات التي تملأ الأجواء. لم أعد أفكر فيما يحدث. شعرتُ بأنني أهرب من جسدي، كأنني أتسلق جدران العقل للهرب بعيدًا. كان الهروب هو الشيء الوحيد الذي أملكه، لكنه لم يكن كافيًا. كنت أعلم أنني سأعود، أنني سأبقى هنا، مجبرة على مواجهة كل ثانية، وكل حركة، وكل صرخة مكبوتة.

عندما انتهوا، كان الصمت ثقيلًا، ثقيلًا لدرجة أنه كاد يخنقني. نظرتُ حولي، رأيتُهم يبتعدون، يتبادلون الضحكات، وكأنهم تركوا وراءهم شيئًا تافهًا، شيئًا لا يستحق حتى التفكير فيه.

نظرت إلى أبي مجددًا. كان قد فقد كل شيء. كان جسده هناك، لكن روحه؟ لا. كانت قد رحلت. أردت أن أصرخ، أن أقول له إنني آسفة، لكن الكلمات لم تخرج. كأن كل شيء داخلي قد تجمد، ولم يبقَ سوى فراغ كبير.

في تلك الليلة، لم أعد أنا. تركوني على الأرض، لكنهم أخذوا شيئًا لا يمكن استعادته. شعرتُ وكأنني أُلقيت في الظلام، ظلامٍ بلا حدود.

لكني علمت في أعماقي أن هذا الظلام هو الذي سيُعيد تشكيل من أكون.

****

أريد أن أستيقظ..

كل شيء يبدو غريبًا. المشهد أمامي كان غير واقعي، كأنني كنت أعيش في كابوس لا ينتهي. الأرض حولي كانت مغطاة بالدم، وعينيّ كانت تحاولان استيعاب ما يحدث. كانت السكون يلف المكان، حتى أنني سمعت صوت تنفسي وكأنني كنت أعيش في فراغ كامل.
همست لنفسي:

"أريد أن أستيقظ،"

لكنني كنت أعرف أنني لم أكن نائمة. كانت هذه هي الحقيقة.

بدأت أطرافي ترتجف، وكلما حاولت أن أتحرك، زاد الألم في جسدي. فقد كانت يديّ مقيدتين خلف ظهري، والعصب في كتفي كان يشعل نارًا في جسدي. لا أستطيع أن أتحرك، ولا أستطيع أن أصرخ. كل ما يمكنني فعله هو أن أراقب، وأن أسمع الصوت المزعج الذي كان يتردد داخل رأسي.

كان الصوت يهمس في أذني،
لا تبكي، لا تضعفي-

كان أكثر هدوءًا من همسات الماضي، لكن لم يكن يبدو كصوتي. كنت أريد أن أنفيه، أن أستعيد نفسي، لكن شيئًا ما بدا أنني لا أستطيع الهروب منه.

وعندما بدأ الصوت يتكرر، بدأ يتغير. أصبح أكثر إصرارًا.

" لن تكوني ضعيفة. حان الوقت لتكوني أقوى.-"

كانت تلك الكلمات تعصف بي كالعواصف.
كيف لي أن أكون قوية؟
كيف لي أن أنسى ما مررت به؟
كيف لي أن أعيش بعد أن اختفى كل شيء؟

وأنا هنا، في هذا المكان، وحيدة بلا أسرة، بلا وطن، بلا أي أمل في المستقبل. كانت تلك اللحظة نقطة تحول. كنت أعرف أنه لا عودة. كنت قد خسرت كل شيء، وكل من كان من حولي. ولكن هناك، في عمق الألم، بدأت شيئًا ما يتشكل داخل نفسي. شيء مظلم، شيء لا أستطيع أن أشرحه.
الأيام تمر كالعمر ذاته. في البداية، ذاكرتي تتنقل بي بين الماضي والمستقبل، بين أنني تلك الفتاة التي كانت تحلم أن تعيش بسلام، وبين أنني تلك الفتاة التي لا تعرف الآن ماذا تنتظر.

هناك شيء آخر أيضًا. شيء غريب، كان يسكنني، يجعلني أراقب كل شيء بعين جديدة.
لم أستطع أن أفهم ما الذي يحدث لي، لكن مع مرور الأيام، بدأت أرى الجوانب الأخرى في كل شيء.

"أنتِ بحاجة إلى القوة،"-
يكرر كان الصوت
." كل ما عليك فعله هو أن تتحولي.-"

عندها أدركت أنه كان يدعوني للعيش بشخصية أخرى، شخصيتين مختلفتين، بدأت أسمع أصواتًا داخل رأسي. شخصيات كانت تدور حولي، تتصارع، تتبادل الأدوار. كل لحظة كانت تعني تحولًا جديدًا.
عندما مشيت للمرة الأولى في الشوارع بعد تلك المذبحة، شعرت بشيء غريب. كان الناس يمرون بجانبي وكأنهم لا يرونني. كانت النظرات تتجنبني. كنت محاطة بالصمت، وكأنني كنت غريبة عن هذا العالم. لكنني كنت أشعر بشيء داخلي يخبرني أنني كنت هناك، أعيش. لم أعد تلك الفتاة التي كانت تراهن على عودة الحياة إلى طبيعتها.

وبينما كنت أواجه هذا الصمت العميق، اكتشفت شيئًا آخر: أنا الآن أملك خيارًا واحدًا. إما أن أعيش في الذكريات أو أن أخلق نفسي من جديد.
قال الصوت:

"أنتِ ولدتِ في الحرب،والآن يجب أن تسيطري عليها-"

كان ذلك بداية التغيير، بداية التحول. وعندما وجدت نفسي أمام مرآة صغيرة في زاوية الحجرة المظلمة، نظرت إلى عينيّ، ورأيت شيئًا جديدًا. كان هناك شخص آخر هناك. لم أكن متأكدة مما إذا كانت هي أنا أم شخص آخر كان ينتظر أن يولد في مكانٍ ما داخل جسدي.

قلت لنفسي وأنا أتأمل في المرآة:
"هذه بداية جديدة،-"
"لا عودة.-"

****

"لن تكوني ضعيفة أبدًا."

كل شيء متناقضًا. جسدي كان يحمل علامات الماضي، لكن روحي كانت تتأرجح بين الفقدان والتساؤل. كيف يمكنني أن أكون قوية في هذا العالم الذي ابتلع كل شيء؟ كيف يمكنني أن أواجهه وأنا على حافة الهاوية؟ كانت هناك رغبة متواصلة في البقاء، وفي نفس الوقت، كان هناك جزء مني يطلب الموت كخلاص.

الصوت الذي أصبح يطاردني منذ تلك اللحظة، يتردد في أذني أكثر من أي وقت مضى. لا يهم كم حاولت أن أهرب منه، شئ لا أستطيع الفكاك منه، بدا لي كأنه نبض داخلي، كأنه جزء مني.

"القوة ليست مجرد غريزة، بل قرار.-"

- هل هذه هي القوة التي يتحدثون عنها؟
- هل القوة أن أتحمل أكثر مما تحمله جسدي وروحي؟
-أن أعيش في عالم مليء بالخراب بينما أبتسم، وأن أظهر للجميع أنني لا أتألم؟

لكني أدركت شيئًا في أعماق نفسي. القوة ليست في عدم الشعور بالألم، بل في القدرة على تحمله دون أن يكسرك. كانت الأيام تمر عليَّ في تلك الحالة من الغموض، وجسدي محملاً بالذكريات التي لا أستطيع التخلص منها.
الألم ينتشر في كل زاوية من كياني، ولكن هناك شيء آخر أيضًا، هناك يقين متزايد أنني لا أستطيع العودة إلى الوراء.

تساءلت بصوت خافت،
-"هل يجب أن أكون ضحية طوال حياتي؟"

وكأنني كنت أوجه السؤال لنفسي

-" هل الحياة ستكون مجرد سلسلة من الخسارات؟"

الجواب في ذهني يصرخ، ولكنني لم أكن مستعدة لسماعه بعد.

" أنتِ لم تعودي ضحية"

كان صوتًا جديدًا، يختلف عن الصوت الذي كنت قد تعودت عليه، لكنه كان أيضًا يخرج من أعماقي

-" الضحية هي تلك التي لا تختار أن تعيش. "

شعرت بالارتباك.

كيف أختار أن أعيش بعد كل ما حدث؟

كيف لي أن أعيش مع كل هذه الصور التي كانت تطاردني؟

كيف لي أن أكون جزءًا من هذا العالم الذي مزقته الحروب؟

لكن شيئًا ما يتغير. لم يكن الصوت فقط ما كان يوجهني، بل كانت اللحظات التي عشتها في هذا الخراب، التي كان لها التأثير الأكبر. عندما رأيت نفسي في مرآة ثانية، لم تكن الصورة كما كانت من قبل. كانت نظراتي أكثر حدة، أكثر يقينًا. لم أعد أرى فتاة صغيرة ضائعة، بل رأيت امرأة، مليئة بالغضب والحزن، ولكن أيضًا مليئة بالقوة.

قالت لي نفسي أخيرًا:
-"أنتِ لستِ وحدك"

وكانت هذه الكلمات تشعل النار في صدري.

هل يمكنني أن أتحكم في مصيري؟. هذا الأمر ليس سهلاً، بل مليئًا بالشكوك والصراعات. أنا أقاتل نفسي كما لو أنني كنت أقتل جزءًا مني، الجزء الضعيف، الجزء الذي لا يستطيع أن يتحمل أكثر.

كان الصوت الداخلي يصرخ في وجهي:

-"تخلصي من الماضي، أو سيكون هو الذي يتخلص منك."

أدركت أنه لا بد لي من مواجهة كل شيء. كنت قد فقدت عائلتي، وكل من كنت أحبه، ولكنني لم أعد أريد أن أكون مجرد ظل في هذا العالم. كنت أريد أن أكون شيئًا آخر، شيئًا قويًا، شيئًا لا يمكن كسره.

كرر الصوت في رأسي:

-"أنتِ لا تحتاجين إلى أن تكوني ضحية أكثر."

وكأن العالم كله صار يردد كلماته.

-"الآن، يجب أن تتغيري."
بينما كنت أستعد لهذه المواجهة مع نفسي، كنت أعلم أنني بحاجة إلى المزيد من القوة. أكثر من مجرد القوة الجسدية أو حتى العاطفية. كنت بحاجة إلى شجاعة لا تعرف الخوف، شجاعة تدفعني للقتال من أجل حياتي، من أجل أن أعيش وفقًا لما أراه صحيحًا.

****

"هل سأفقد نفسي تمامًا؟"

التغيير الذي حدث لي غير مرئي في البداية، لكن مع مرور الوقت أصبح واضحًا. كنت أظن أنني أعيش في حالة من الانكسار، لكن الحقيقة أنني كنت أعيد بناء نفسي شيئًا فشيئًا، مثل قطع الزجاج التي تتناثر في مكان مظلم، ولا أحد يستطيع رؤيتها إلا بعد أن تشرق الشمس.

كنت أنكر هذا التحول. كنت أرفض فكرة أنني قد أتحول إلى شخص آخر. كيف لي أن أكون غير تلك الفتاة التي عاشت بين الناس بحب وهدوء؟ كيف لي أن أتحول إلى شيء آخر، شيء لم يكن موجودًا في حياتي أبدًا؟ ولكن الحقيقة أنني لم أعد أتمكن من الهروب من نفسي. فالتغيير يتسلل إلى كياني بلا رحمة، وكأنه لغم تحت الجلد، كلما حاولت تجاهله انفجر في وجهي.

"الضعف ليس خيارًا."

تلك الكلمة كانت ترن في عقلي، وكأنني سمعتها من مكان بعيد. وكان صوتها يتغير مع مرور الوقت، يتحول إلى شيء أكثر قوة، أكثر صلابة.

وفي ذات اللحظة، شعرت بشيء غريب، كأن عينيّ تستعرض الأشخاص من حولي كما لو أنني أراهم لأول مرة.
أرى أفكارهم، أرى دواخلهم بوضوح غير مسبوق. ربما كان هذا جزءًا من التغيير. ربما أمتلك قدرة على فهم دوافع الآخرين، شعرت وكأنني أصبح جزءًا من هذا العالم المظلم الذي أصبح يحتويني.

اعتدت ان أراقب الناس الذين يمرون بجانبي، شعرت أنهم في فقاعة لا تنتمي لي. الجميع يتصرفون كما لو أنهم لا يدركون الواقع. أراهم في زحامهم اليومي، في طرقاتهم التي لا تنتهي، في حيواتهم التي لا تتوقف، وكأنهم يتنقلون في عالم موازٍ. أما أنا، فقد أصبحت جزءًا من هذا العالم الذي يسعى فقط للنجاة.
لكنني كنت أخشى شيئًا آخر.

- "هل سأفقد نفسي تمامًا؟"
سألت نفسي هذا السؤال وأنا أنظر في تلك المرآة التي تعكس صورة فتاة لم أعد أعرفها تمامًا. وجهها يحمل تلميحات من الماضي، لكن في عينيها كان هناك شيء مختلف.
هناك مسحة من الجفوة، من التحدي، من الإصرار على ألا أسمح لأي شيء أن يضعفني مجددًا.

ومع مرور الأيام، كان ذلك الصوت الذي كنت أسمعه يتغير. لم يعد صوتًا يحثني على البقاء قوية فقط، بل أصبح صوته مليئًا بالتحذيرات.

-"لا تتركي الماضي يأخذك بعيدًا. كوني ما أنتِ عليه الآن، لا تنغمسي في الحزن الذي كان."

انا أتعلم كيف أتعامل مع هذه الشخصية الجديدة التي بدأت تتشكل داخلي. لم أعد أرى نفسي كما كنت، لم أعد تلك الفتاة التي كانت تبحث عن حماية، عن حب. فأنا أبحث الآن عن شيء آخر. عن الحرية. عن السيطرة على كل شيء كان يحيط بي.

وبينما أتأمل في هذه الشخصية الجديدة، شعرت بنوع من الوحدة، لكنها وحدة من نوع آخر. وحدة مليئة بالقدرة على التأثير.

-"لن أسمح لهذا العالم أن يبتلعني. أنا من سأتغير."

الكلمات التي تتناثر في عقلي أكثر قوة من أي وقت مضى. تلك الشخصيات التي تسكنني قد أصبحت أكثر وضوحًا. فانا أعيش حياة متعددة الأبعاد، وكل شخصية كانت تظهر في الوقت الذي يتطلبه الأمر.

وفي اللحظة التي أصبحت فيها على قناعة تامة بتلك الشخصية الجديدة التي بدأت تتشكل داخلي، فهمت انني يجب ان اتقبلها.

****

"لماذا لم أستطع فعل شيء؟"

انا احب التأمل في السماء، لكن السماء في هذه الليلة، كما لو كانت تراقبني بصمت، غارقة في سكون ثقيل، كما لو أن كل الكون كان قد توقف عن التنفس.

أرى كل شيء ببطء، بكل تفاصيله الدقيقة، رغم أن الوقت يمر بشكل متسارع، والصوت الوحيد الذي يتردد في رأسي هو دقات قلبي المتسارعة، وكأن كل دقة كانت تقطع جزءًا من روحي.

-"لم يكن هناك شيء يمكن أن يوقفهم."

في تلك اللحظة، كنت ممددة على الأرض. يديّ مكبلتان، وعيناي تغرقان في دموع غزيرة، لكنني لم أستطع التحرك.

جسدي جاثمًا في مكانه كما لو أنه فقد القدرة على الحركة. حولي، كان الجميع... أسرتي، أخوتي، أبي وأمي، كانوا ملقين على الأرض، مستسلمين للموت الذي كان يقترب.

كيف يمكنني أن أصف اللحظة التي قُتل فيها كل شيء كنت أعرفه؟

كيف يمكن أن أشرح تلك اللحظة التي كان فيها أغلى الناس في حياتي يسقطون أمام عيني، في صمت قاتل، بينما كنت عاجزة تمامًا عن إنقاذهم؟

لم يكن الصراخ ممكنًا، لم يكن هناك شيء يمكنني فعله سوى أن أراهم وهم يُقتلون.

لكن الأكثر ألمًا، هو أنني لم أكن وحدي في تلك اللحظة. كانوا جميعًا ينظرون إليّ، وكانوا يعلمون أنه لا أمل.

"أنتِ هنا، لن تفعلي شيئًا."

تلك الكلمات تتردد في عقلي، يراقبني الجميع، كل واحد منهم يحمل نظرة صمت رهيب. وكأنهم كانوا يدركون ما سيحدث، لكنهم أيضًا كانوا يعلمون أنني لا أستطيع التدخل.

"لماذا؟ لماذا لم أستطع فعل شيء؟"

تساءلت، بينما كنت أرى ذراع أخي يُرفع في الهواء، والدماء تنزف منه، ثم يسقط أرضًا. كانت هذه اللحظات تتمدد أمامي وكأنها لا تنتهي، وفي كل لحظة كان الألم يتزايد. كانت اللحظة التي قد انتظرتها تأتي ببطء، ولم يكن لدي ما يمكنني أن أفعله.

وفي هذه اللحظة من الصمت، كنت أستطيع سماع صوتهم، رغم أنهم في آخر لحظاتهم، صوتهم مملوءًا بالحزن والوداع، وكأنهم يعلمون أن هذه هي النهاية.

أعرف أنهم كانوا يودعونني، كما لو أنهم أرادوا أن يقولوا لي:

-"كوني قوية."

انا أرى قلب أمي ينفطر أمامي، وعينيها المملوءتان بالدموع كانت تلتقط آخر صورة لي، وهم يقومون بتجريدي من ثيابي، أنوثتي، براءتي، أحلامي، فطرتي. وكأنها كانت تشعر بكل هذه الأوجاع في نفسي.

- "أنتِ ستظلين هنا."

قالت تلك الكلمة بصوت مخنوق، وتراخت يدها، وأغشي عليها.

واحد تلو الآخر، كانوا يقتلون أمامي، بينما كنت أرى الظلال السوداء تقترب أكثر. كنت أراهم، وعيونهم مليئة بالدموع، لكنهم كانوا يتساقطون من أمامي مثل قطع الشطرنج، وكنت عاجزة عن إنقاذهم.

في تلك اللحظة، كنت في حالة شلل تام. ليس جسدي فقط، بل عقلي وروحي أيضًا كانا في حالة انهيار.

ومع سقوطهم، مع اغتيالهم واحدًا تلو الآخر، ولد بداخلي ذلك الشئ . شخصية متجمدة. بلا مشاعر. قادرة على أن تكون صامتة مثل الموت.

ومع هذا الصمت، كان ينتابني شعور غريب، شعور بالقوة، وكأنني بدأت أتعلم كيف أعيش من خلال الموت، كيف أعيش بعد أن فقدت كل شيء.

ولم يكن الوقت كافيًا لأنني بدأت أكتشف شيئًا جديدًا في نفسي. شيء كنت أخشى مواجهته، لكن لم يكن لدي خيار سوى أن أواجهه.

فأنا:

"لن أكون الضحية بعد اليوم."

"إذا كنتِ تريدين الحياة،

يجب أن تتركي الماضي وراءك."

هذا الظلام الذي يحيط بي، مثل ثقل من الأرض نفسها، يأسرني في مكان لا يمكنني الهروب منه. أشعر كأنني ضائعة بين ثنايا الزمن، وكأن عقلي قد أُغلق عليه تمامًا. لم أعرف كيف أستطيع التكيف مع ما حدث، ولا كيف أبدأ في إعادة بناء نفسي.

فقد فقدت كل شيء. وكل شيء بدا وكأنه انهار في لحظة واحدة، ليترك خلفه حطامًا لا يمكن إصلاحه.

لكن مع مرور الأيام، كان هذا الفقد يعيدني إلى الحياة بطريقة مختلفة.

-"هل أستطيع العيش بهذه الطريقة؟"

-"هل أستطيع أن أستمر بعد كل شيء؟"

بدأت أطرح هذه الأسئلة على نفسي في اللحظات التي أكون فيها وحدي. في تلك اللحظات التي تسبح فيها الأفكار في رأسك كأنها أمواج متلاطمة، أبحث عن إجابة، عن مخرج. لكن الجواب كان دائمًا يتأخر، كما لو أن الحياة نفسها كانت تقاوم عودتي.

لكن الحقيقة أكثر صعوبة من مجرد انتظار الإجابة.

- "لم أعد أنا."

لم أعد الفتاة التي كنتها قبل الحرب، ولم أعد الشخص الذي كنت عليه قبل أن تنقضّ مليشيا الجنجويد على أسرتي.

فقد تحولت، لكنني لم أكن أعرف إلى ماذا. فأنا أعيش في حالة من الغموض، متشكلة في صورة جديدة لا أستطيع فهمها.

في أحد الأيام، كنت جالسة في تلك الزاوية الضيقة التي أصبحت ملاذًا لي، وأرى نفسي في المرآة، بعد وقت طويل. لم يكن هناك شيء يمكنني أن أتعرف عليه. لم يكن هناك سوى عيون مظلمة تحمل في عمقها شيئًا غريبًا. شيء كان يراقبني، كأنني كنت أرى نفسي للمرة الأولى، في كل مرة أنظر فيها للمرأة، كأنني كنت غريبة عن نفسي.

-"من أنا الآن؟"

هذا السؤال يتردد في ذهني بشكل متسارع، وكأنني بحاجة إلى الإجابة عليه لكي أتمكن من التحرك.

فكرة أنني لا أعرف من أكون تقتلني ببطء.

أبحث عن هوية جديدة، عن شكل آخر من الحياة يمكنني من خلاله العيش.

الألم يتسرب إلى أطراف أصابعي، ولكنني كنت أصر على أن أواجهه، أن أتعلم كيف أعيش مع هذا الألم

- "أنا ما أختار أن أكون عليه."

تلك هي الحقيقة التي بدأت يتكشف أمامي، كأنني وجدت الضوء بعد الظلام الطويل. أستطيع أن أكون شخصًا جديدًا. أستطيع أن أختار شكلًا جديدًا لي، حتى وإن كانت هذه الشخصية قد ولدت من أوجاع الماضي.

أكتشفت قوة لم أكن أدركها، قوة للوجود رغم كل شيء، رغم الخراب الذي مررت به.

-"لن أكون الضحية بعد اليوم."

كانت هذه العبارة تتكرر في ذهني كثيرا، وكلما تكررت، تزداد قوتها. هذا هو عهد نفسي.

لن أسمح لهذا العالم أن يحطمني مرة أخرى. لن أكون جزءًا من الألم بعد الآن. فقد أبدأ في بناء شيء جديد. شيئًا لا علاقة له بالضعف، شيئًا يعتمد على قوتي في مواجهة كل شيء مرّ بي.

لكن جدران الوحدة تضغط عليّ بشكل متسارع، وكأنني كنت محاصرة داخل نفسي. لكنني أعلم في أعماقي أنني على وشك اكتشاف شيء مهم جدًا. على وشك أن أكون الشخص الذي أريد أن أكونه، بعيدًا عن الصورة التي رسمها الآخرون لي.

أختبر نفسي في كل لحظة. أرى كيف أتعامل مع الألم، كيف أواجه العالم بنظرة جديدة.

أدرك أنني لا أستطيع أن أستمر في العيش في الماضي.

"إذا كنتِ تريدين الحياة، يجب أن تتركي الماضي وراءك."

لم أعد بحاجة للمغفرة من أحد. كنت أمتلك قوتي الخاصة، قوتي في مواجهتي لكل شيء.
هذه اللحظة يمكن ان تكون ولادة جديدة. بداية وجود آخر، لم يكن مشوهًا ولا مكسورًا، بل هو وجود يعترف بكل الألم.

.....

أنا على استعداد أن أتخلى
عن كل شيء من أجل أن
أكون الشخص الذي أريد أن أكونه.
في اللحظات المظلمة التي كنت أُغلق فيها على نفسي في الزاوية المظلمة من المكان الذي كنت أعيش فيه، كانت أصوات أفكاري تتصارع داخلي.

لم يكن من السهل أن أواجه نفسي، أن أنظر في عمق عينيّ في المرآة وأرى ذلك الشخص الذي كان يعيش في الظلال. كان هناك جزء مني يرفض أن يصدق أنني قد تغيرت، يرفض أن يصدق أنني أستطيع أن أكون شخصًا جديدًا.
-"أنتِ ضعيفة، لا يمكنك الاستمرار. لن تكوني أبدًا أكثر من مجرد ضحية. "

هذه الكلمات تتردد في عقلي مثل صوت طنين ثابت، كما لو أنها جزء من ذاكرتي. أسمعها، أستطيع أن أرى هذا الجزء من نفسي الذي يصر على العيش في الماضي، يرفض أن يترك تلك الذكريات التي تلاحقني بكل ثقلها.

-"هل يمكنني أن أعيش دون أن أكون ضحية؟"
- "هل يمكنني أن أجد السلام في داخلي؟ "
هذه الأسئلة تتنقل داخل رأسي، وكأنها حجارة ثقيلة تلقي بها الأمواج في عقلي.

صراعًا داخليًا مريرًا، كما لو أنني في معركة لا تنتهي. أصرخ في داخلي، أصرخ بلا صوت، وأحاول التملص من تلك الكلمات التي كانت تحبسني في مكان ضيق.

وفي كل مرة كنت أستطيع أن أتراجع خطوة، كانت تلك الأصوات تُعيدني للوراء.

-"أنتِ لن تكوني أكثر من خيال."

لم أكن أستطيع أن أهرب منها. تلك الذكريات كانت تسحبني إليها بكل قوتها، كلما حاولت التقدم.

صورة أبي، صورة أمي، صورة أخوتي... كلهم يعودون لي في كل لحظة، يقفون أمامي وكأنهم يتحدونني. وكأنهم يقولون لي:

-"هل ستتمكنين من نسيان كل شيء؟"
-" هل ستستطيعين الهروب من هذا؟"

هناك جزء من نفسي يرى أنني لا أستطيع أن أتخلى عن هذا الماضي.

فأنا أعيش في حالة من التوتر الداخلي. أريد أن أكون قوية، لكن في الوقت نفسه، كنت أفتقد الأمان الذي كان يحظى به هؤلاء الذين فقدتهم.

أفتقدهم بشدة، هناك جزء مني يريد أن يعود إلى تلك الأيام البسيطة التي كانت تحمل فيها الحياة معاني أخرى.

-"ولكن هل يمكنني أن أعود إلى تلك الأيام؟"

هذه هي الأسئلة التي أطرحها على نفسي، وكأنني كنت أسعى لثبات لا يمكن أن يوجد في هذا العالم المملوء بالفوضى.
الشخصية الجديدة التي بدأت في البناء بداخلها تتصارع مع كل تلك الأجزاء الممزقة.

جزء يريد أن يتذكر، أن يشعر بالحزن ويعيش معه. وجزء آخر يريد أن يهرب إلى الأمام، يريد أن يصبح شخصًا آخر تمامًا.

هذا الجدال الداخلي أحيانًا مرهق، وكأنني أعيش في صراع دائم مع نفسي.

كيف أتمكن من أن أكون شيئًا آخر؟

كيف أتمكن من التخلص من تلك الأصفاد التي تقيدني؟

وفي أحد الأيام، كنت جالسة في تلك الزاوية المظلمة، أتأمل في ألمي، أسمع صوتًا خافتًا ينبعث من داخلي، كما لو أن هناك صدى لهويتي الجديدة.
كان هذا الصوت يهمس لي

-"لن أكون أبدًا كما كنت، ولن أعيش في الماضي. أنا من أختار من أكون."

تلك اللحظة كانت نقطة تحول أخرى، حيث أدركت أنني يجب أن أتوقف عن معاندة التغيير.
انا أحاول بكل قوتي أن أتمسك بتلك الذكريات، ولكن في تلك اللحظة، بدأت أعي أنني لا أستطيع أن أعيش في ظل الماضي.

" إذا أردت أن أعيش، يجب أن أتركهم، يجب أن أترك الماضي، يجب أن أكون من أختار أن أكونه."

وفي ذلك الوقت، أدركت أن التغيير ليس مجرد كلمات أو أفكار نرددها في أذهاننا. التغيير هو معركة حقيقية. معركة ضد كل شيء قد يمنعنا من أن نكون ما نحن عليه الآن. ضد الأفكار المظلمة، ضد الألم، ضد الذكريات التي تمنعنا من التقدم.

وأنا، في تلك اللحظة، قررت أن أبدأ في محاربة نفسي، أن أواجه هذا الصراع الداخلي بكل قوتي.

****

"القوة لا تأتي من التجارب السهلة"

بدأت ألاحظ شيئًا غريبًا. كنت أشعر كما لو أنني كنت أعيش في جسدين: أحدهما ماضي مليء بالجراح والذكريات، والآخر حاضر مستمر في تشكيل نفسه. في كل مرة كنت أنظر إلى نفسي في، كنت أرى شخصًا جديدًا يظهر. ليس فقط في ملامحي، ولكن في عينيّ، في نظرتي إلى الحياة.

تلك النظرة التي كنت أراها في المرآة هي ما جعلني أدرك أنني لم أعد الشخص نفسه الذي كنت عليه.

أنا أكتسب قوة غير مفهومة، شيء غير ملموس ولكن مؤثر في جوهر كياني.

-"هل كنت أعيش طوال هذه الفترة في ظل نفسي القديمة؟"

الأسئلة تتزاحم في ذهني، ولكن في نفس الوقت، كنت أريد أن أُجيب عليها. أريد أن أكون الشخص الذي أصبح الآن.

لكن التغير لم يكن مجرد تحول بسيط. هناك لحظات شعرت فيها وكأنني أعود إلى الماضي، وكأنني أفقد السيطرة على نفسي.

تلك اللحظات صعبة جدًا.

أشتاق إلى ذلك الشخص الضعيف الذي كان يعيش في أمان داخلي، ذلك الشخص الذي يهرب من المعركة، يهرب من مواجهة نفسه.

اسأل نفسي..

كيف لشخص ضعيف أن يصبح قويًا؟

كيف يمكن أن يتغير أحدهم بشكل جذري بين ليلة وضحاها؟

قال لي ذلك الصوت:

-"القوة لا تأتي من التجارب السهلة، بل من التجارب التي تحطمنا وتجعلنا نعيد تشكيل أنفسنا."

هل أنا أتغير على المستوى الداخلي؟.

الشخصية القديمة التي أملكها، تلك التي تحمل الألم والهزيمة، هل تبدأ في التلاشي؟.

والشخصية الجديدة بدأت تخرج من الظلال، هل كنت أتعلم كيف أعيش في هذا التغيير؟

سأخطو خطوات صغيرة نحو شخصيتي الجديدة. مع كل خطوة، ربما أرى جزءًا من نفسي يختفي، وجزءًا آخر يضيء أمامي.

"أنا لست ما كنت عليه، ولكنني أيضًا لست شيئًا عاديًا."

لم يكن هذا الأمر مرناً أو سلسًا. كانت المعركة في داخلي تستمر، وكانت الصورة التي كنت أراها تتغير من لحظة إلى أخرى.

هناك لحظات شعرت فيها أنني تائهة في هذا التغيير. لكن في كل مرة كنت أعود فيها إلى نفسي، كنت أرى أنني لم أعد خائفة. كنت أستطيع الآن أن أواجه ما كان مخيفًا في السابق. كانت هذه القوة شيئًا أبحث عنه طوال حياتي، ولكنني لم أكن أعرف أنني أمتلكها.

"أنتِ لستَ وحدك، أنتِ لا تعيشين في ماضيكِ."

تلك الكلمات كانت بمثابة الحبل الذي يربطني بالحاضر، يساعدني على التحرر من ثقل الماضي.

بدأت أعي أن التغيير لا يتطلب منك أن تترك كل شيء خلفك، بل أن تكتشف الطريقة التي تجعلك قادرًا على التعامل مع كل شيء، حتى لو كان ذلك يعني أن تتصالح مع ماضيك بطريقة جديدة.

وبدأت أرى أن الشخص الذي كنت عليه لم يكن إلا جزءًا من الصورة الكبيرة. قد تكون التغيرات مؤلمة في البداية، لكنني أعرف الآن أنه في النهاية، كانت تلك هي الطريقة الوحيدة للعيش.

****

لم يكن الموت وحده هو العقاب

لم تكن النيران التي أضرموها في أجساد أهلي هي النهاية. كانت البداية.

لحظة واحدة، مزّق فيها الجنحويد حياتي كما يمزّق الوحش الجائع فريسته، وتركوني أعيش، ليس لأنهم رحموني، بل لأنهم أرادوا أن أكون شاهدة على ما حدث...

أن أعيش كذنبٍ يتنفس، كجسدٍ يحمل جريمة لا تمحى.

حين أُطفئت أصوات الصراخ، وحين أُسكتت أرواح عائلتي أمام أعينهم الموحشة، كنت أظن أن الموت سيكون التالي. كنت أنتظر الرصاصة التي تنهي كل شيء. لكنهم قرروا أن يتركوني... أن أعيش وسط الرماد والدخان والذكريات.
لم أعد أتذكر الأيام التي تلت. كل شيء كان مشوشًا. كنت أمشي بلا هدف بين الخراب. الجدران كانت سوداء، الأرض مغطاة بآثار الدماء، وملامح وجه أمي... أمي التي رأيت في عينيها كيف تحطمت كل قوة كانت تحملها من أجلي، كانت تطاردني أينما ذهبت.

حين جاءت قوات الجيش أخيرًا، كان الوقت قد فقد معناه. كان الجنحويد قد رحلوا، تاركين خلفهم دمارًا لا يوصف. رأيت الجنود يطهرون المدينة، يقتلون كل من بقي من تلك الوحوش. لكن بالنسبة لي، لم تكن هناك طهارة كافية لتغسل ما حدث.

عندما انتهى كل شيء، أدركت أن الحرب لم تنتهِ بالنسبة لي. لم أكن أتحدث. لم أكن أخرج من ذلك المنزل الذي أصبح قبرًا لأحلامي. حتى الهواء في داخله كان ثقيلًا، يحمل رائحة الحريق التي لا تختفي، وصدى الأصوات التي كانت تملأ المكان.

أول مرة خرجت فيها كانت عندما اضطررت لذلك. كانت المدينة تمتلئ بالحياة مرة أخرى. قوات الجيش طردت الجنحويد، وبدأ الناس يعودون، لكنني كنت أعرف أن شيئًا ما قد تغيّر فيهم.

نظرات المجتمع: القسوة، الشفقة، والتجاهل

حين مررت في الشارع لأول مرة، شعرت بآلاف العيون تطاردني. كنت كظلّ يمشي بين الأحياء. لم يكن الناس يقولون شيئًا في البداية، لكنني شعرت بكل كلمة تُقال في صمتهم. كنت أرى الشفقة في عيون بعضهم، تلك الشفقة التي كانت تثقل صدري وكأنها سلاسل من حديد.

"مسكينة..." سمعت امرأة تهمس لصديقتها وهي تشير إليّ خفية.

لكنها لم تكن المسكينة الوحيدة في قصتهم. كنتُ أكثر من ذلك بالنسبة لهم. كنت علامة، ذكرى لما يمكن أن يحدث لأي واحدة منهم. كنتُ تجسيدًا للكارثة التي لا يريدون التفكير فيها.
ثم كان هناك أولئك الذين كرهوني .. كرهوني لأن وجودي يذكرهم بعجزهم.
-"لماذا لم تمت مع عائلتها؟"
كنت أسمع تلك الكلمات أحيانًا، من بعيد. أو أقرأها في العيون التي لا تحاول حتى أن تخفي قسوتها.
"ربما أرادت أن تعيش لتروي الحكاية."
لكني لم أرغب في رواية شيء. لم أرغب حتى في سماع صوتي.

في أحد الأيام، جاءت إحدى السيدات لتقدم لي طعامًا. وضعت الطبق أمام الباب ورحلت دون أن تنظر إليّ. لم أكن ألومها. كنت أعلم أن وجودي يسبب لهم جميعًا ألمًا.

لكن الأسوأ لم يكن في الشفقة أو الكراهية. الأسوأ كان في التجاهل. بعضهم تعامل معي كأنني شبح، لا وجود لي. كأنني لم أكن هناك، لم أكن أعيش بين أنقاض تلك المدينة.

كنت أمشي في السوق ذات يوم، بعدما ألزمني الجوع بالخروج، ومررت بجانب مجموعة من النساء. توقفن عن الحديث لحظة مروري، ثم استأنفن كلامهن بصوت أعلى، وكأنهن يرغبن في التأكد أنني أسمع.

-"هؤلاء... لا يعودن إلى الحياة مرة أخرى. لا يمكنهن أن يكن طبيعيين."

كلماتهن كانت تقتلني أكثر مما فعلته أيدي الجنحويد.

الجنود في المدينة يحاولون مساعدة الناس على الوقوف مرة أخرى. كنت أراهم أحيانًا من النافذة.

أحدهم كان ينظر إليّ باستمرار. لم أكن أعرف اسمه، لكن عينيه كانتا مختلفتين عن عيون الآخرين. لم يكن فيهما شفقة أو حكم.

ذات يوم، طرق الباب. كنت أظن أنه أحد الجيران، لكن حين فتحت، كان هو. لم يقل شيئًا في البداية. فقط وقف هناك، ثم مدّ يده وقدم لي كيسًا صغيرًا من الطعام.

-"أعرف أنك لا تريدين الخروج، لكن يجب أن تأكلي."

لم أعرف كيف أرد. أخذت الكيس دون أن أنظر إليه، وأغلقت الباب.

بعد أيام، قررت أن أخرج مرة أخرى. كنت أعرف أن العالم لن يتغير. أن الناس سيظلون يحدقون بي كما فعلوا دائمًا. لكنني خرجت، رغم ذلك. كنت أحتاج إلى أن أعيش. لم يكن الأمر سهلاً، ولم تكن النظرات والكلمات تختفي.

لكن في داخلي، بدأت أجد شيئًا جديدًا. كنت أبحث عن القوة في رماد حياتي. كنت أعرف أن ما حدث لن يُنسى، لكنني بدأت أفهم أنني، بطريقة ما، نجوت. ربما كانوا يرونني كضحية، لكنني بدأت أرى نفسي كشخص يحاول أن يتنفس، رغم كل الألم.

لم أعد أهتم كثيرًا، بدأت أتعلم أن الشفقة ليست دائمًا ضعفًا، وأن الكراهية ليست دائمًا حقيقة، أتعلم أنني لست ما يعتقدونه. كنت شيئًا مختلفًا. شيئًا يتعلم كيف يواجه.

انا ارى الجنود يساعدون في إعادة البناء، والناس يحاولون إعادة بناء حياتهم. كنت أعرف أنني أيضًا أحتاج إلى أن أبني نفسي من جديد، حتى لو كان الطريق طويلًا.

(لم يكن من السهل مواجهة العالم.)

****

بلال

المكان ساكنًا، كأن المدينة قد أُفرغت من أرواحها، لا صوت إلا أنين الريح وهي تمر عبر النوافذ المكسورة. كنتُ جالسة عند عتبة المنزل الذي لم يعد منزلًا، أشعر أنني جزء من هذا الحطام، أنني بقايا شيء كان يومًا إنسانًا. ملابسي ممزقة، شعري متشابك، وجسدي يحمل آثارًا لن تمحى أبدًا.

كنت أراقب الغبار وهو يرقص في ضوء شمس المغيب، وكأن العالم يودعني بصمت.

فجأة، سمعت خطوات ثقيلة تقترب. لم أرفع رأسي، لم أكن أريد أن أرى المزيد من الوجوه. لكن الخطوات توقفت. كان هناك ظل يكسوني.

-"أنتِ بخير؟"

كان صوته خشنًا، لكن فيه نبرة خافتة من الحنان. رفعت بصري ببطء. كان رجلاً يرتدي زي الجيش، وجهه متسخ بالغبار، وعيناه متعبتان كأنه يحمل على كتفيه أثقال العالم، يده ممدودة نحوي، كأنه يحاول أن ينتشلني من أعماق الأرض.

لم أجب..

لم أستطع..

شعرت بقلبي ينبض بجنون، ليس خوفًا، بل خليطًا من الخوف والريبة والضعف. لقد رأيتُ رجالًا كثيرين، وكلهم كانوا أشباحًا في حياتي.

-"لا بأس... لن أؤذيكِ."

قالها وهو يجثو على ركبتيه، ليصبح على مستواي.

كنت أنظر إلى عينيه مباشرة. لم تكن فيهما تلك الوحشية التي رأيتها في عيون الآخرين، لكنها كانت تحمل شيئًا آخر... حزنًا قديمًا، ألمًا مكتومًا.

-"ما اسمكِ؟"

لم أجب. لم أكن أريد أن أخبره اسمي. فالاسم يثقل كاهلي، رمزًا لما كنت عليه، لما لم أريده.

جلس هناك، لم يُبدِ أي محاولة للاقتراب أكثر. كأنه فهم أن المسافة هي كل ما أملك. قال بهدوء:

-"أنا أدعى بلال. جئت مع الجيش لتطهير هذه المدينة من الوحوش الذين فعلوا هذا. نحن هنا لنساعد."

كلمة "نساعد" أصابتني كلكمة.

هل يمكن للمساعدة أن تمحو شيئًا كهذا؟

هل يمكن لأي شيء أن يعيد لي ما فُقد؟

شعرت بحرارة تملأ صدري، لكن لم أعرف إن كانت غضبًا أم يأسًا.

-"لا أحد يمكنه المساعدة."

قلتها بصوت بالكاد خرج.

هز رأسه ببطء، كأنه سمع هذه الجملة مئات المرات. ثم قال بصوت منخفض:

-"ربما. لكنكِ ما زلتِ هنا، وهذا يعني أن لديكِ خيارًا. خيارًا للوقوف، للمضي قدمًا. أعرف أن هذا يبدو سخيفًا الآن، لكن..."

قاطعته، لأول مرة بشيء من الحدة:

-"أنت لا تعرف شيئًا. لم تكن هنا. لم ترَ ما فعلوه. لم ترَهم وهم يقتلون أبي وأمي، وهم يضحكون كأنهم في احتفال. لم ترَ... لم ترَ..."

توقفت، شعرت بكلماتي تخونني. لكن دموعي لم تتوقف.

لم يرد بلال. ظل جالسًا بهدوء، كأن صمته كان نوعًا آخر من الكلام. بعد لحظات، قال بصوت خافت:

-"أنتِ على حق. لم أرَ ما رأيتِ. لكنني رأيتُ أشياء أخرى... أشياء جعلتني أفقد الإيمان بكل شيء. رأيتُ أطفالًا يُحرقون أحياء. رأيتُ نساءً يقتلن فقط لأنهن رفعن أصواتهن. رأيتُ أصدقائي يُقتلون أمام عيني، ولم أستطع إنقاذهم."

توقف للحظة، وكأنه يستعيد أنفاسه من الألم الذي تسلل إلى صوته. ثم أكمل:

-" أعرف أن هذا لن يعيد شيئًا. لكنني أريدك أن تعرفي أنني هنا. ليس لأغير الماضي، ولكن لأساعدكِ على أن تحملي هذا الألم بطريقة مختلفة."
نظرتُ إليه، وشعرتُ بشيء يتحرك داخلي، كأنه كسر الجدار الذي بنيته حول نفسي.
ظل بلال واقفًا، كأن ظله كان حائطًا يحجب عني ضوء الشمس المتسلل بين الغبار. لم أرفع عيني عن الأرض، ولم أحاول أن أوقف الدموع التي كانت تسيل كأنها تحمل جزءًا من ثقل روحي.
كنت أريد أن أقول له أن يرحل، أن يتركني أدفن نفسي في صمتي، لكن كلماته السابقة كانت كخنجر قد غرس في صدري، ولم أستطع نزعها.
-"أتعلمين؟"
قال بلال فجأة، صوته كان أقرب إلى همس هادئ، كأنما كان يخشى أن يكسر شيئًا آخر بداخلي.
-"في الحروب، نخسر أشياء كثيرة. لا أتحدث عن الأرواح فقط، بل نخسر أنفسنا أحيانًا، ذلك الجزء النقي فينا... لكنني أؤمن أن بعض النقاء لا يموت أبدًا، مهما اشتدت العتمة."

رفعت عيني إليه ببطء. كان ينظر إلى الأفق، إلى الشمس الغاربة التي بدت كأنها تختنق تحت ثقل الغبار. في عينيه، رأيت انعكاسًا لعتمة مماثلة لتلك التي سكنتني.

-"كيف يمكنك أن تقول ذلك؟"

قلتها بصوت متقطع، كأن الكلمات كانت تُقتلع من حلقي.

-"كيف يمكن لأي شيء نقي أن ينجو بعد كل هذا؟ بعد أن تُكسر روحك؟ بعد أن تُجرد من كل شيء؟"

لم يتحرك بلال، لكنه أطلق نفسًا طويلًا، كأنه كان يحاول ترتيب الكلمات في داخله قبل أن يقولها.

-"أفهم ما تقولينه. عندما كنت في الميدان لأول مرة، رأيت ما يجعل المرء ينسى كل شيء عن الإنسانية. رأيتُ أصدقاءً يموتون أمامي، أناسًا يُقتلون بلا سبب سوى أنهم وُجدوا في المكان الخطأ. كان لدي أخ صغير، اسمه عمر. كان كل شيء بالنسبة لي. قتلته نفس الأيادي التي جئتُ اليوم لأحاربها. لم أعد أتذكر عدد الليالي التي بكيت فيها حتى شعرت أنني فارغ بالكامل."

توقفت دموعي فجأة، كأن كلماته سرقتني من عالمي وألقتني في ظلامه. نظرتُ إليه، ورأيت انعكاس الألم في عينيه، ذلك الألم الذي كأنه جرح مشترك، لكنه لم يكن يشبهني فقط، بل كان يشبه كل من فقدوا.

-" لكنني أدركت شيئًا،"

أكمل بلال بصوت خافت، كأنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثني.

-"الألم هذا... هذا الظلم الذي يلتف حول أعناقنا مثل حبل مشنقة، لا يختفي. لكننا نحن من نقرر إن كان سيخنقنا أم أننا سنعيش رغم ثقله. أخبريني... عندما كنتِ مع أسرتك، عندما كان كل شيء بخير، كيف كنتِ ترين العالم؟"

شعرتُ بالوجع يخترقني مجددًا.

-"كنتُ أراه بسيطًا... كنتُ أظن أن الخير أقوى، وأن الشر بعيد... كنتُ أظن أنني بأمان."

-"أجل،"

قال بلال بابتسامة حزينة.

-"وأنا أيضًا. لكن الحروب تعلمنا أن العالم ليس بسيطًا. ليس الخير أقوى دائمًا، وليس الشر بعيدًا أبدًا. ومع ذلك، هناك شيء آخر تعلمته. الخير قد يكون ضعيفًا، لكنه لا يموت. انظري إلى نفسك، إلى وجودك هنا الآن. رغم كل شيء، رغم عتمة ما رأيته وما مررتِ به، ما زلتِ هنا. لا يعني ذلك أنكِ بخير، لكنه يعني أنكِ صامدة، حتى ولو لم تريدي ذلك."

أغمضتُ عينيّ للحظة، شعرتُ بكلماته تضربني بقوة، كأنها محاولة منه ليشعل ضوءًا صغيرًا في تلك الظلمة التي أغرقتني.

-"ولكن لماذا؟"

قلتُ بصوتٍ مهزوز.

-"لماذا أصمد؟ لم يبقَ لي شيء. لا أسرة، لا أمان، لا شيء سوى هذا الجسد الذي أصبح لعنة تذكرني بكل ما حدث. ماذا سيبقى مني إن كنت مجرد بقايا؟"

انحنى بلال قليلًا حتى صار على مستواي مرة أخرى، ونظر في عينيّ مباشرة.

-"سيبقى منكِ شيء لا يمكن لأي أحد أن يأخذه، مهما فعلوا. سيبقى منكِ اختيارك. اختيارك ألا تكوني انعكاسًا لما فعلوه بكِ. اختيارك أن تُعيدي بناء ما دُمر، ولو كان حجارة صغيرة في قلبك. أعرف أن هذا لا يبدو منطقيًا الآن، لكنني أؤمن أن الظلام ليس نهاية القصة. النقاء الذي فقدتهِ... قد يكون مختبئًا، لكنه لم يمت."

ترددت كلماته في داخلي، وشيء ما بداخلي كاد يصدق، ولو للحظة. كان الأمر أشبه بمحاولة إشعال نار صغيرة في ليلة عاصفة، لكن مجرد المحاولة نفسها كانت شيئًا.

-"لماذا تهتم؟"

سألته بعد صمت طويل.

-"لماذا تكترث لشخص مثلي؟"

ابتسم بلال ابتسامة شاحبة.

-"لأنني أرى فيكِ ما رأيته في نفسي ذات مرة. لم أكن أريد أن أستمر، لكنني وجدتُ يدًا مدت لي، لم تقل لي إن كل شيء سيكون على ما يرام،

لكنها قالت لي إن الألم ليس النهاية. الآن، أنا أمد يدي إليكِ... ليس لأنني أملك الإجابات، بل لأنني أعرف كم هو صعب أن تشعري أنكِ وحدك."

شعرتُ بشيء ثقيل يغادر صدري، ولو للحظة. لم أكن أعرف إن كنتُ سأصدق كلماته بالكامل، لكنني شعرتُ بأنه وضع حجرًا صغيرًا في جدار كنتُ أظن أنه لن يُبنى أبدًا.

نظر إلى الشمس الغاربة وقال:

-"العالم ليس عادلًا، ولن يكون أبدًا. لكننا نحن من نقرر إن كنا سنعيش في هذا الظلم أو سنبحث عن بقعة صغيرة من النور. هذا النور قد يكون في شيء بسيط... في كلمة... في يد ممدودة... في ابتسامة قديمة تُعيدكِ للحياة."

لم أجب. فقط نظرت إليه وهو يبتعد ببطء، وتركني هناك مع كلماته. لأول مرة منذ ما حدث، شعرتُ أنني لستُ وحدي تمامًا.

.....

عندما قررت أن أنهي حياتي..

هذا الليل يزحف ببطء على غرفتي الصغيرة، التي تملأها برائحة الموت الذي لم يعد مخيفًا.

كنت أجلس على الأرض، في وسط الظلال التي تتراقص مع ضوء شمعة خافتة. أمامي زجاجة صغيرة شفافة، تبدو عادية للوهلة الأولى. لكنها تحمل كل ما أحتاجه لإنهاء هذا العبث.

-"هكذا إذن... ستكون النهاية ؟"

سألت نفسي بصوت مرتجف وكأنني أتحدث لشخص آخر.

نظرت إلى الزجاجة، ثم إلى يدي التي كانت ترتجف. كنت أعلم أن ما بداخلها لن يكون سريعًا. لن يُسدل الستار بسهولة. سيتطلب الأمر وقتًا، وسيكون الألم جزءًا من الرحلة الأخيرة.

لكنني أردت ذلك. أردت أن أشعر بالألم للمرة الأخيرة... كأنني أعاقب نفسي على النجاة، على كل نفس شرق من أجسادهم ومنح لي.

-"لماذا الآن؟"

جاء صوت آخر، داخلي، لكنه بدا غريبا،

-"لأنني تعبت. لأنني لم أعد أستطيع الاستمرار."

-"أهذا هو السبب؟ أم لأنك خائفة؟"

أغمضت عيني بقوة.

-"خائفة؟ من ماذا؟"

-"من الحياة من الناس من نفسك."

كنت أكره هذا الصوت. كان دائمًا يظهر عندما أحاول أن أهرب وكأنه يستمتع بإعادتي إلى الظلام الذي أحاول الهروب منه.

-"أنا لست خائفة. أنا فقط ... أنا فقط لم أعد أتحمل كل شيء يؤلمني. هذه النظرات... الكلمات... الصمت. حتى أنا أكره نفسي. أكره أن أستيقظ كل يوم وأحمل هذا الجسد الذي كان شاهدًا على كل شيء."

-"أوه، إذا تريدين أن تطهري نفسك، أليس كذلك؟ هذا ما تقنعين نفسك به ؟ أن الألم سيغسل روحك قبل أن تغادري ؟"

كان الصوت هادئا، لكنه يحمل شيئًا من السخرية. شعرت بالغضب يغلي داخلي.

-"أنت لا تفهم. أنت لا تعرف ما الذي مررت به."

-" أنا؟ أنا لا أفهم؟ أنا أنت يا غبية. أنا كل تلك اللحظات التي صرخت فيها بصمت كل تلك الليالي التي انكمشت فيها على نفسك، وكل كلمة قاسية سمعتيها وأبقيتها هنا..."

ضربت صدري بيدي بقوة.

- "اصمت!"

-" لا، لن أصمت. لأنك بحاجة لسماع هذا لأنك تهربين، كما فعلت دائما تظنين أن الموت هو الحل، لكنه ليس كذلك. الموت لن يعيد عائلتك، ولن يمحو ما حدث. إنه فقط سيجعلك جبانة، ضحية أخرى في قصة مليئة بالضحايا."

شعرت بالدموع تحرق عيني.

-"وماذا أفعل إذا ؟ كيف أعيش وأنا لا أستطيع التنفس ؟ كيف أمضي وأنا أشعر أن كل خطوة تأخذني أقرب إلى هاوية لا مفر منها ؟"

-" لا أحد قال إن الأمر سيكون سهلاً. لكن الهروب ليس الحل. هل تعتقدين أن هذا السم سيحررك ؟ لا، إنه فقط سيحبسك في دائرة أخرى

من الألم. ألمك لن ينتهي هنا. سيبقى معك، أو ربما سينتقل إلى من سيجد جسدك إلى تلك المرأة التي تركت طبق الطعام عند بابك. إلى الجندي الذي يحدق بك كل يوم وكأنه يرى فيك شيئًا لا ترينه."

-"لا أحد يهتم بي. كلهم يرونني كخطيئة، كعار."

-"أوه، وهل هذا يبرر أن تقتلي نفسك ؟ هل ستمنحينهم القوة ليقرروا قيمتك ؟ أنت تمنحين الجنحويد انتصارًا جديدًا، كما لو أن ما فعلوه بك لم يكن كافيا."

سقطت الزجاجة من يدي. حدقت بها وهي تستلقي على الأرض، بينما كان صوتي الداخلي يزداد قسوة.

-"أنت ضعيفة، وهذا ليس عيبًا. لكن الضعف الحقيقي هو أن تستسلمي له. تظنين أنك تتطهرين، لكنك في الحقيقة تقتلين ذلك الجزء الصغير من روحك الذي ما زال يقاتل."

-" وأين هو ؟ أين ذلك الجزء ؟ أنا لا أشعر به. كل ما أشعر به هو الفراغ ... والظلام."

-" لكنك ما زلت تتحدثين ما زلت تسمعينني. هذا يعني أن هناك شيئا ما بداخلك ما زال يريد الحياة، حتى لو أنكرت ذلك."

نهضت ببطء، التقطت الزجاجة وألقيتها بعيدًا. سمعت صوت الزجاج وهو يتحطم، وشعرت بشيء غريب في داخلي مزيج من الراحة والغضب والخوف.

-"لا تعتقد أنني تراجعت ما زلت أكره نفسي، وما زلت أكره هذا العالم."

-"لا بأس. لا أحد قال إنكِ يجب أن تحبيه الآن. لكن على الأقل، امنحي نفسك فرصة ربما، فقط ربما تجدين سببًا للعيش."

جلست على الأرض مرة أخرى، بين الزجاج المحطم والشمعة التي كانت توشك على الانطفاء. أغمضت عيني، وتركت الدموع تنهمر بحرية. كنت أعرف أن المعركة لم تنته، وأنني سأواجه هذا الصوت مرة أخرى. لكن في تلك اللحظة، شعرت بشيء صغير... شيء أشبه بالأمل.

الليل دائمًا يعري الوجوه التي أخفيها عن نفسي، يجعلني أجلس أمام مرآة لا يمكن كسرها. صوتي الداخلي كان واضحًا، قاسيًا، ومليئًا بالأسئلة التي لا أريد لها إجابات.

- لماذا أنا؟

صوتي بدا وكأنه ينبعث من أعماق هاوية. كنت أعلم أنني لا أنتظر إجابة، ومع ذلك جاءني الصوت الآخر، ذلك الصوت الذي لا أستطيع إسكاته.

- ولماذا لا تكونين أنتِ؟ ألم تعتادي على فكرة أن الألم لا يبحث عن مستحقين، بل يختار عشوائيًا؟

تألمت من قسوة الإجابة، لكنني لم أستطع إنكار حقيقتها. كان الألم حقيقة عارية، يقف أمامي ببرود، ينتظر مني أن أقبله كما هو، بلا عذر، بلا تفسير.

- لكنني لم أكن مستعدة...

- وهل يستأذن الألم؟ هل ينتظر اللحظة المناسبة؟ لا أحد مستعد، وهذا هو السر. الخوف لا يطرق الباب؛ إنه يدخل كالعاصفة، يجتاح كل شيء، ويمحو كل معالمك القديمة.

صمتّ للحظة. شعرت بأن جسدي يرتجف من الداخل. الخوف، ذلك الشعور الذي كان يغلف كل زاوية في حياتي، كان الآن يتحول إلى شيء آخر. شيء كنت أخاف أن أفهمه.

- كيف أواجهه؟ كيف أحاربه؟

- بالخوف ذاته. لا يمكن كسر سلاح سوى بسلاح مشابه. استعملي خوفك كسيف، لا كقيد. اجعليه مرآتك، لكن لا تسمحي له بأن يعميك.

ابتلعت الغصة في حلقي. كنت أعلم أنني أعيش في دوامة. كان الخوف قد أصبح جزءًا من كياني، لكن فكرة محاربته بنفسه؟ كانت تشبه السير على جسر هش فوق هاوية بلا قاع.

- وإن سقطت؟

- أنتِ بالفعل في القاع. السقوط لم يعد خيارًا. الخيار الوحيد الآن هو الصعود، حتى لو كان صعودًا مؤلمًا. واجهي الحقيقة: الألم هو المعلم الوحيد الذي لن يخدعك أبدًا. إنه حقيقي، ثابت، وسيذكرك دائمًا بأنك حية.

تلك الكلمات، على قسوتها، شعرت بأنها تطعنني لتوقظني. الألم حتمي؟ نعم. لكنه أيضًا الشيء الوحيد الذي منحني يقينًا.

كنت أعلم أنني سأحمله معي إلى الأبد، كعلامة محفورة على جلدي، كجزء من قصتي.

- لكن لماذا الوجود ذاته مبني على العذاب؟ لماذا لا يمكننا أن نحيا دون أن نُجرح؟

- لأن العذاب هو ما يصنعنا. بدون جروحك، أنتِ لا شيء. أنتِ مجرد فراغ ينتظر أن يُملأ. الوجود لا يمنحك حياة سهلة، بل يمنحك حياة تستحق أن تُحكى. والألم؟ هو ما يجعل القصة مثيرة، ما يجعلها جديرة بأن تُروى.

شعرت بتلك الكلمات تتسلل إلى عظامي. كنت أكرهها، وأحبها في الوقت ذاته. كان هناك شيء مرير في قبول هذه الحقيقة، لكنه كان أشبه بابتلاع دواء مُرٍّ ينقذك من مرض قاتل.

- وماذا عن الخوف؟ ألن يتركني أبدًا؟

- لن يتركك، لكنه سيتحول. سيصبح جزءًا من قوتك. الخوف ليس عدوك، بل هو الدافع الذي سيبقيكِ واقفة، حتى عندما تريدين الانهيار. تعلمي أن ترقصي معه بدلًا من أن تهربي منه.

في تلك اللحظة، شعرت وكأنني توقفت عن التنفس. كنت أرى نفسي كما أنا: مليئة بالخوف، بالألم، بالتناقض. لكنني كنت أرى شيئًا آخر أيضًا. كنت أرى بصيصًا صغيرًا، ربما أملًا، أو ربما مجرد فكرة بأنني لست مضطرة للهرب بعد الآن.

- وما الخطوة التالية؟

- الخطوة التالية؟ لا توجد خطوات واضحة. فقط استمري في السير. الألم سيبقى، والخوف سيبقى، لكنك ستتغيرين. هذا كل ما تحتاجين معرفته الآن.

صمت الصوت. لم أكن أعلم إن كان قد انتهى الحديث، أم أنني أنا التي قررت التوقف عن الإصغاء. لكنني شعرت بشيء جديد في داخلي، شيئًا لم أكن أستطيع تسميته. ربما كان بداية. ربما كان مجرد وهم. لكنني علمت شيئًا واحدًا:

سأبقى. سأبقى حتى أفهم.

.....

صوت من أعماقي يُحدثني.. ربما جُننت..

ظلامي الجديد كان صوتًا، لكنه لم يكن كأي صوت عرفته من قبل. كان يشبه صوتي لكنه أشد عمقًا، أكثر إيلامًا، وأكثر حكمة.

-"ماذا ستفعلين الآن؟"

جاء الصوت من داخلي، كأنه تمزق بين طيات عقلي، متجاهلًا كل الجدران التي حاولتُ أن أبنيها بعد تلك الليلة.

-"لا أعلم..."

كنت أرد وكأنني طفلة فقدت كل شيء. شعرتُ وكأنني أقف وسط حقلٍ محترق، كل شيء فيه مجرد رماد.

-"لن يكفي ألا تعلمي. الظلام الذي زرعوه بداخلك سيبتلعك ما لم تتحركي. ستغرقين فيه، وستبقين هنا إلى الأبد."

-"أريد أن أنسى."

-"النسيان؟ وهل تعتقدين أن النسيان ممكن؟ هذا الألم هو جزء منك الآن. جزء من روحك، من عينيك، من كل كلمة ستنطقين بها يومًا ما. لا يمكنك الهروب منه، لكنه لا يعني أنكِ ضحية."

-"كيف؟ كيف لا أكون؟ لقد رأيتَ ما فعلوا... لقد قتلوا كل شيء بداخلي، حتى صوتي..."

-"صوتك ما زال هنا. أنا هو صوتك الآن. أنا ما تبقى منك. لن أدعك تغرقي. لكن عليكِ أن تواجهي. عليك أن تفهمي أنكِ لم تخطئي. العار ليس في جسدك. العار في أيديهم القذرة، في عيونهم الخالية من النور."

-"لكني أشعر بالنجاسة... أشعر بأن كل نظرة، كل نفس آخذها ملوثة بما حدث. كيف يمكنني أن أعيش بعد هذا؟ كيف يمكنني أن أنظر في أعين من تبقى؟"

-"بالصبر. بالتحمل. لا شيء مما حدث كان ذنبك. لقد كنتِ مجرد لوحةٍ حاولوا أن يشوهوها، لكن اللوحة ما زالت هنا. أنتِ ما زلتِ هنا. لديهم القوة لجعلك تنكسرين، لكن لديهم القوة فقط إذا سمحتِ لهم."

-"وكيف لا أسمح لهم؟"

- "بالبحث عن القوة في داخلك. حوّلي هذا الجرح إلى درع. لن يمحو الألم، لكنه سيمنحك الغضب النقي، الغضب الذي يُصلح ويُبني. ستصبحين أقوى مما ظنوا. هل تعلمين لماذا؟"

-"لماذا؟"

-"لأنهم حاولوا سحقكِ أمام عيني من تحبين، وظنوا أن النهاية قد كُتبت. لكنهم أخطأوا. النهاية لم تُكتب بعد، والقلم الآن في يديكِ. ابدأي بالكتابة، لكن لا تكتبي للانتقام فقط. اكتبي للبقاء. اكتبي لحماية الأخريات. اكتبي لأنكِ نجوتِ رغم كل شيء."

شعرتُ بأن الصمت عاد بعد تلك الكلمات، لكنه لم يكن صمتًا مخيفًا هذه المرة. كان يشبه الغطاء الذي يلفني بحنان خفي.

-"هل سأشفى يومًا ما؟"

-"لا أحد يشفى تمامًا. لكنكِ ستتعلمين كيف تحولين الألم إلى أجنحة. ستتعلمين كيف تمشين فوق ذكرياتكِ دون أن تنكسر قدماكِ."

كانت الحياة قد أهدتني شبحًا داخليًا، لكنه لم يكن عدوًا. كان معي، يقودني عبر هذا الظلام الذي بدأ يتحول تدريجيًا إلى نور خافت.

****

رحلة البحث عن العدالة

كانت كلمات بلال ما زالت تلاحقني كظلٍ..
لا أستطيع التخلص منه:
-الظلام لا يموت، لكنه قد يتحول إلى طريق، إن كنتِ قوية بما يكفي لتسلكيه."
أخذتُ كلماته كأنها آخر خيط يربطني بالحياة. الطريق كان أمامي غامضًا، مليئًا بأصواتٍ لا أفهمها، وجدران تتنفس صمتًا خانقًا.
الظلام الذي تحدث عنه بلال يسكنني، لكنه لم يكن وحده. كان هناك أيضًا شيء آخر، صوت خافت ينبض في أعماقي، وكأنه يهمس لي:
-"سيري... حتى النهاية."
دخلتُ أبواب المحاكم وكأنني أخطو في متاهة بلا مخرج. في كل مكتب، كانت العيون تتأملني بنظرات مختلفة: شفقة باردة، استهجان مريب، أو لامبالاة قاتلة.
شعرت وكأنني كائن غريب لا ينتمي إلى هذا المكان، وكأن العالم بأسره يتآمر على محو قصتي قبل أن تبدأ.

في أحد المكاتب، كنت جالسة أمام ضابط شرطة، رجل أربعيني يدخن سيجارة تنبعث منها رائحة تشبه الحزن. قال لي بصوت بارد كأن مشاعره خُلقت ميتة:

-"لا توجد دلائل، لا شهود. حتى إن كانت قصتك حقيقية، فإن الزمن قد مضى."

أخذتُ كلماته كصفعة..

(الزمن؟)

هل يملك الزمن أن يمحو ذاكرة الألم؟

هل يمكن لدماء أهلي التي سالت أمامي أن تجف فقط لأن ساعات الحائط استمرت بالدوران؟

خارج المكتب، وقفتُ تحت شجرة كبيرة. كانت الشمس غائبة، والسماء تبدو كأنها لوحة مرسومة بالفحم. شعرت بشيء غريب، وكأن الظلال من حولي تتحرك. التفتُ سريعًا، وكأنني توقعت أن أرى وجهًا مألوفًا. لكنه لم يكن هناك. كان الشعور بالخوف يلتف حول عنقي، كالخيط الذي يكاد يخنقني.

قررت أن أمضي.

سافرتُ كما طلب مني بلال. لم أكن أسافر بحثًا عن الشفاء؛ كنت أسافر لأهرب من نفسي. العمل مع المنظمات الإنسانية بدا لي وكأنه حياة مستعارة، حياة لا تخصني.

كنتُ مجرد جسد يتحرك، يحمل أوراقًا، يملأ استبيانات، ويتحدث إلى الناجين والناجيات. لكن كل قصة كنتُ أسمعها كانت كأنها خنجر ينغرس في روحي.

وفي أحد الأيام، بينما كنتُ أراجع تقريرًا على مكتبي، شعرتُ بيدي ترتعش. كانت الأرقام أمامي تتحول إلى كوابيس حية:

-"54٪ من الناجيات اخترن الموت طواعية."

العبارة كانت تردد في رأسي، وكأنني أسمع همسات الأرواح التي غادرت العالم. كنتُ أراهن أمامي، أجسادهن تسبح في ظلام، عيونهن فارغة، وكأن الألم استنفد كل شيء.

صفحة أخرى، وعبارة أخرى كانت كافية لتحرقني:

-"20٪ فقدن عقولهن."

كنتُ أرى نفسي بينهن، أسمع صرخاتهن في داخلي. كنتُ أشعر بدموع لم تجف، وندوب لا تُشفى.

ثم الصفحة الأخيرة:

-"15٪ من الناجيات حملن من مغتصبيهن."

تلك الجملة، تلك الجملة وحدها كانت كافية لتُسقطني من الكرسي. شعرت كأن الهواء من حولي صار أثقل. تخيلتُ وجوههن، تلك الأمهات

اللاتي يربين أبناءً وهن يلعنّ كل لحظة حملت فيها أجسادهن بذور الشر. مجتمع بأكمله كان ينظر إليهن كأنهن المسؤولات، بينما كنّ مجرد ضحايا، مجرد أجساد سرق منها كل شيء.

وفي تلك اللحظة، دخل بلال إلى الغرفة. كان يحمل كوبًا من القهوة، لكن نظرته تغيرت عندما رأى وجهي.

-"ماذا قرأتِ؟"

سألني، صوته كان هادئًا لكنه يحمل قلقًا خفيًا.

-"هذا ليس عدلًا!"

صرخت.

-"هؤلاء النساء، هؤلاء الأطفال، هؤلاء الأرواح التي ماتت قبل أن تعيش. العالم كله يقف متفرجًا. المنظمات، الحكومات، الجميع يتجاهلهم."

-"نحن نحاول."

قالها بخفوت، وكأن كلماته لم تكن كافية حتى له.

-"تحاولون؟"

قاطعته بصوت مرتجف.

-"لا أحد يدينهم. لا أحد يصنفهم كمجرمين، كإرهابيين. كأنهم مجرد شبح، لا يُمس ولا يُحاسب."

نظر إليّ بلال طويلاً، ثم قال:

-"أحيانًا، يا ليلى، يكون الظلام أكبر مما نتصور. لكن هذا لا يعني أننا نتوقف عن المحاولة. ليس لأننا سنغير العالم، بل لأننا نحتاج أن نبقي الضوء حيًا في داخلنا. إذا فقدناه، سنصبح مثلهم."

كان كلامه يبدو منطقيًا، لكنه لم يكن كافيًا لتهدئة العاصفة في داخلي. شعرتُ أنني أضيع، أن كل شيء حولي يتآمر على إسكاتي.

وفي تلك الليلة، جلستُ أمام نافذة غرفتي، أنظر إلى السماء التي كانت سوداء بلا نجوم. شعرتُ بأنني صغيرة جدًا، عاجزة جدًا. لكنني شعرت أيضًا بشيء جديد...

كأن الألم الذي أحمله بدأ يتحول إلى شيء آخر. شيء يشبه الغضب، لكنّه أعمق. كان كأنه وعد صامت بألا أستسلم، بأن أصرخ بأعلى صوتي حتى لو لم يسمعني أحد.

****

وجوه لا تُنسى

كانت السيارة تسير ببطء، وكأنها تحاول تجنب الزمن نفسه. المحرك يئن تحت وطأة الحمولة الثقيلة، لكن الصوت الأثقل كان في داخلي. لم أكن أعلم أن هذه الرحلة ستعيدني إلى الجحيم، إلى النقطة التي كنت أظن أنني تجاوزتها.

عندما توقفت السيارة فجأة، عرفت أن شيئًا خاطئًا يحدث. كان الطريق خاليًا، لكن أمامنا نقطة تفتيش ظهرت كالشبح من العدم. رجال مسلحون، يحملون البنادق كأنها امتداد لأجسادهم، يقفون تحت أشعة الشمس الحارقة.

-"أبقوا هادئين."

قال السائق بصوت متوتر، وكأنه يحاول تهدئة نفسه أكثر مما يحاول تهدئتنا.

تركت السيارة وأنا أشعر بأن الأرض تحت قدمي أصبحت أقل صلابة. خطواتي كانت واهنة، وجسدي بأكمله ينتفض وكأنني أعلم ما ينتظرني.

أحد الجنود تقدم نحونا. وجهه كان متورمًا من تأثير السُكر، وعيناه نصف مغمضتين، لكنهما ما زالتا قادرتين على النظر إلينا وكأننا لا شيء سوى صيد جديد.

-"أوراقكم!"

صرخ بصوت أجش، ثم أضاف بابتسامة قبيحة:

-"وبالطبع، أي شيء ذي قيمة."

بدأنا نعطيهم كل ما نملك . المال، الوثائق، حتى الهاتف . كنت أراقب كل حركة يقومون بها، لكنهم لم يبالوا بي. لم ينظروا إلى عينيّ، لم يتوقفوا للحظة ليتذكروا وجهي.

-"كيف؟"

سألت نفسي.

في تلك اللحظة، عادت كل الذكريات كالسيل. كان أحدهم، الجندي الذي يقف الآن ببرود بجانب سيارتنا، هو ذاته الذي كان في تلك الليلة. كنت متأكدة. عيناه، نظراته، ضحكته الساخرة، كل شيء فيه يصرخ بأنه هو.

-"كيف لا يتذكرني؟"

-"هل هذا كل شيء؟"

سأل الجندي.

-"نعم، هذا كل شيء."

أجاب السائق وهو يحاول تجنب النظر في عينيه.

كان بإمكاني سماع دقات قلبي، كأنها طبول حرب تدق في أذني. أردت أن أصرخ، أن أمسكه من ياقة قميصه وأصرخ في وجهه:

-"كيف تجرؤ على نسياني؟ أنا التي مزقتَ حياتها. أنا التي رأيتَ انكسارها. كيف لبشر أن ينسى وجه من أذاه؟"

لكني لم أفعل.

عدنا إلى السيارة بعد أن أخذوا كل شيء. تحركنا، لكن قلبي ظل معلقًا هناك. صوتها الداخلي كان يتحدث معي:

-"هل تظنين أن صمتك هو القوة؟ هل هذا الصمت سيعيد لكِ ما فقدتِ؟"

-"لكنه لا يتذكرني!"

صرخت في داخلي.

-"وهل تعتقدين أن الوحوش تتذكر؟ الوحوش لا تملك ذاكرة. لا تملك روحًا."

جلست في المقعد الخلفي وأنا أشعر بشيء غريب. ليس الخوف فقط، بل الغضب أيضًا. كان الغضب يتصاعد داخلي كأنه بركان على وشك الانفجار.

-"كيف لا يتذكرون؟ كيف لا يحملون عبء ما فعلوه؟"

-"لأنهم فقدوا إنسانيتهم منذ زمن بعيد."

أجاب صوتي الداخلي، ذلك الصوت الذي أصبح أكثر حكمة مع الوقت، لكنه لم يفقد حدته.

-"لكنهم كانوا السبب في كل هذا. لماذا لا أستطيع أن أتركهم يمرون هكذا؟"

-"لأنك إن فعلتِ، ستصبحين مثلهم. قاتلة بلا رحمة."

خارج النافذة، كان المشهد يبدو هادئًا، لكن داخلي كان يضج بالعواصف. كنت أرى وجوههم في كل مكان. الضحكات القبيحة، العيون الزائغة، الأيدي التي امتدت لتحطمني.

-"لو كنتِ أقوى في تلك اللحظة، لربما استطعتِ إيقافهم."
-"لا، لا تقولي ذلك. لا أحد يستطيع أن يقف أمام وحش كهذا بمفرده."
عندما عدنا إلى الطريق، استجمعت شجاعتي وأخرجت الهاتف الذي كنت أخفيه تحت المقعد. كتبت رسالة سريعة وهادئة:
" هناك نقطة تفتيش على الطريق. حوالي ثلاثين رجلاً، جميعهم مسلحون، لكنهم غير منظمين. الكثير منهم مخمورون. الإحداثيات مرفقة."
أرسلت الرسالة إلي بلال، وأغلقت الهاتف.
بعد أقل من ساعة، سمعنا صوتًا مدويًا. الأرض اهتزت تحت السيارة، والسماء امتلأت بصدى الانفجار. الطائرات مرت فوقنا بسرعة، وكأنها تحمل معها صوت العدالة الذي انتظرته طويلًا.
-"ماذا حدث؟"
سألت المرأة بجانبي، لكنني لم أجب.
كنت أعرف.

عدنا إلى نقطة التفتيش، كان المكان قد تحول إلى جحيم. الأشجار محترقة، والسيارات مقلوبة، وأجساد الجنود متناثرة في كل مكان.
تقدمت نحو الحطام، ووقفت أمامه. شعرت بشيء غريب يغمرني. لم يكن فرحًا، لكنه كان شيئًا يشبه السلام.

-"لقد انتهى."
همست لنفسي.
لكن صوتي الداخلي أجابني بهدوء:
-"لا شيء ينتهي بهذه السهولة. الحروب تترك بصماتها إلى الأبد."
عدنا إلى السيارة، وتركت المكان خلفي. لكن داخلي، كنت أعلم أن تلك اللحظة لم تكن نهاية الطريق. كان هناك المزيد لفعله، المزيد للقتال من أجله.

تم بحمد الله

****

رسالتي إلى العالم

في ختام هذه الرواية المليئة بالمآسي التي اختبأت بين السطور كالأشباح، يجب أن ننظر إلى الألم ليس كجرح يعيقنا، بل كصوت يدفعنا لنكون أكثر إنسانية. هناك أرواح نسائية عانت من الظلمفي صمت، وصمدت أمام الجنجويد ووحشيتهم، في حين أن العالم اكتفى بالتفرج أو بالصمت، وكأن الإنسانية قد أغمضت عينيها أمام الدماء.

هذه النهاية ليست سوى بداية لنداء نوجهه لكل من يقرأ، نداء ليقف ضد كل من يجرؤ على انتهاك حرمة النساء، ومعاقبة كل من يمد يده القذرة على أرواحهن وكرامتهن. ليكن الألم الذي شهدته بطلتنا دافعًا لنا جميعًا لتغيير هذه الحقيقة المريرة، ولنتذكر أن أصوات الضحايا لن تُمحى، حتى لو حاول العالم أن يُخرسها.

دعونا نحمل هذا النداء كالتزام أخلاقي، أن نحمي كل امرأة، أن نحارب الصمت، أن نجعل العدالة حقيقة لا وهماً. لأن النساء هن العمود الفقري لكل مجتمع، وإذا أردنا عالمًا أكثر عدالة وإنسانية، فعلينا أن نبدأ من هنا، من حيث انتهت كلمات هذه الرواية.

وائل البابلي

محتويات الرواية

شياطين في الأقنعة..... 9
أريد أن أستيقظ..... 13
"لن تكوني ضعيفة أبدًا." 17
"هل سأفقد نفسي تمامًا؟" 21
"لماذا لم أستطع فعل شيء؟"..... 24
"إذا كنتِ تريدين الحياة، يجب أن تتركي الماضي وراءك."..... 27
"القوة لا تأتي من التجارب السهلة"..... 35
لم يكن الموت وحده هو العقاب..... 38
بلال..... 43
رحلة البحث عن العدالة..... 60
وجوه لا تُنسى..... 65
رسالتي إلى العالم 70
محتويات الرواية 71

dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.